الحمى فى القرن الاول الهجرى

بقلم الدكتور صالح العلى

ذكر اللغويون تعريفات متعددة للحمى ، لعل أدقها تعريف الليث بأنه (موضع فيه كلاء ''يحمى من الناس أن يرعى)'' لسان العرب ١٨/ ٢١٧) و قد نقل السمهودى هذا التعريف ، و أضاف اليه تعريفا فقهيا و هو: ''موضع من الموات يمنع التعرض له ليتوفر فيه الكلأ ، فترعاه مواشى مخصوصة (وفاء الوفاء ٢/ ٢١١) . و من هذه التعريفات يتبين ان للحمى ملكية عامة تتصل بالدولة فتستغلها للصالح العام ، أو للشيخ و لرئيس القبيلة ليستغلها لنفسه ، علما بأن ما يملكه الشيخ أو الرئيس تؤول بعض فوائده للعشيرة أيضا .

يذكر الشافعى : '' كان الرجل العزيز من العرب اذا انتجع بلدا مخصبا أوفى بكلب على جبل ان كان به ، أو نشز ان لم يكن به جبل ، ثم استعواه و وقف له من يسمع منتهى صوته بالعواء فحيث بلغ صوته حماه من كل ناحية فيرعى مع العامة فيما سواه و يمنع هذا من غيره لضعفاء سائمته و ما أراد قرنه معها فيرعى معها ''(الأم ٣/ ٣٧٠ وفاء ٢/ ٢٢٤ ، لسان العرب ١٨/ ٢١٧) . و من هذا يتبين انه ليست للحمى القدسية التى للحرم ، و انه لا يشترط فيه أن يكون مكانا مقدسا ، و انه تنفيذ محاولة لقلب المشاع الى ملكية خاصة عن طريق القوة و السيطرة .

ينقل ياقوت : '' قال الاصمعى : الحمى حميان : حمى ضرية و حمى الربذة '' قال المؤلف : و وجدت انا حمى فيد و حمى النير و حمى ذى الشرى و حمى النقيع'' '' و حمى فيد قال ثعلب : الحمى حمى فيد اذا كان فى اشعار أسد وطيء ، فأما فى اشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب المدينة بينها و بين عرب (ياقوت ٢/ ٣٤٢) و يضيف السمهودى بعد

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ايراده هذا النص " قلت و هى ، عد النقيع ، بنجد . و هى متقاربة بل سيأتى ما يؤخذ منه دخول النير فى حمى ضرية " (وفاء ٢/ ٩١) و يشير ياقوت الى حمى جلسد (ياقوت٣/ ١٢٣) و حمى ذى شرى (ياقوت ٤/ ٢٤٦)

و قد ذكرت من احماء الجاهلية عرنة فيروى ياقوت (بئر ألية فى حزم بنى عوال على نيف و أربعين ميلا من المدينة . و قيل اليه واد بفح الحياء ، والفسح واد بجانب عرنة ، و عرنه روضة بواد ما كان يحمى للخيول فى الجاهلية و الاسلام بأسفلها قلهى (ياقوت ١/ ٣٥٥ — وفاء ٢/ ٢٥١)(١)

و يروى ابن المجاور: "قيل ان جميع ارض زبيد كانت حمى مهلهل و كليب و ذلك من حد الحجف إلى أنف قونص و فيه قصره و بركته و اصطبله الذى كان يربط فيه خيله .

و أما حمى كليب و مهلهل فكان من الحجف الى انف قونص الى رأس رمع و جميع جواز زبيد و أوديتها الى حد النوبتين و قوارير طولا فى عرض مثله (المستبصر ص ٦٣ — ٦٤) .

و هذه رواية مشكوك فى دقتها . (انظر صفة جزيرة العرب ١٧٢)

و قد ذكر ياقوت : " ألجام موضع من أحماء المدينة جمع حمى (ياقوت ج ١ ص ٣٥٠) دون أن يشير الى موقعه أو يقدم تفاصيل عنه .

١- ان عبارة ياقوت هذه فيها تحريف و تصحيف ، فيحسن الرجوع الى الأصل الذى نقل عنه ، و ان لم يصرح به ، و هو كتاب الامكنة و المياه و الجبال و الآثار، و نحوها المذكورة فى الاخبار و الأشعار : تأليف ابى الفتح نصر بن عبدالرحمن الاسكندرى المتوفى فى حدود ٥٦١ فقد جاء فى ذلك الكتاب (الورقة ال ١٤ من مخطوطة المتحف البريطانى) ما هذا نصه : (باب الية ، و أليئة و ليئة ، أما بفتح الهمزة و سكون اللام : فهو أبرق فى بلاد بنى أسد ، قرب الاجفر ، يقال أليه الشاة ناحية ترب الطرف ، و بين الطرف و المدينة نيف و أربعون ميلا ، و قيل : واد بفسح الحجابية ، و الفسح : واد بجانب عرية ، فيض واسع ، و عرية : روضة بواد مما كان يحمى للخيول فى الجاهلية و الاسلام ، بأسفلها قلهى و هى ماء لبنى جذيمة بن مالك)

تروى بعض الكتب ان الرسول صلى الله عليه و سلم قال " لا حمى الا الله و رسوله" (ام ٣/٢٧٠ وفاء ٢/٢٢٤ ابن حنبل ٤/٧١ ، ٧٣ البخارى : المساقاة باب") .

غير ان هناك روايات تذكر ان الرسول أقر لبعض الاشخاص حمى كما انه حمى حمى، و قد استمرت هذه الاحماء بعد الرسول ، مما يدل على ان نسبة الحديث المذكور أعلاه ليست بمنجاة من الشك و انها تعبر عن موقف الناس من الاحماء بعد الاسلام .

فيرى الاصفهانى " كان عمرو بن سلمة بن سكن بن قريط بن عبد بن أبى بكر أسلم فحسن اسلامه و وفد الى النبى فاستقطعه حمى بين الشعارى و السعدية ، و السعدية ماء لعمرو بن سلمة ، و الشعارى ماء لبنى قتادة بن سكن بن قريظة و هى رحبة طولها تسعة أميال فأقطعه اياه فأحماها ابنه جحوش فاسترعاه نفر من بنى جعفر بن كلاب فأرعاهم، فحملوا نعمهم على خيلهم بغير اذنه فاخبر بذلك فغضب و أراد اخراجهم " (أغانى ٢٠/١٦٥ ، انظر وفاء ٢/٣٣٠ و ياقوت : ٣/٣٠٦) حيث يسميانها الشقراء بدل الشعاري و يروى ابن اسحق عن عبدالله بن ابى بكر" فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله فأسلموا و حمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس و للراحلة و للمثيرة تثير الحرث فمن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت " (طبرى ١/١٧٢١) و قد روى نصه بشكل آخر ان لهم حماهم الذى أسلموا عليه فمن رعاه بغير بساط أهله فما له سحت" حميد الله الوثائق السياسية ٢٢٣) .

و يروى ابو داود من طريق عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده " جاء هلال احمد بنى متعان الى رسول الله صلى الله عليه و سلم بعشور نخل فسأله أن يحمى واديا يقال له سكبة فحمى له رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك الوادى ، فلما ولى عمر بن الخطاب رحمه الله كتب سفيان بن وهب الى عمر يسأله ذلك فكتب اليه عمر : ان أدى اليك ما كان

يؤدى الى رسول الله صلى الله عليه و سلم من عشور نخله فاحم واديه سكبة فانما هو ذباب غيث يأكله من شاء) (السنن ١/٤٠٣ ط القاهرة ١٣٤٨ ، بكرى ٨٤٦) حميد الله ٢٤٩ .

و يروى ابن سعد انه أعطى بنى قرة حمى بكتاب هذا نصه " بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اعطى محمد رسول الله بنى قرة بن عبدالله بن ابى نجيح النهديين انه اعطاهم المظلة كلها ، ارضها و ماءها و سهلها و جبلها حتى يرعون فيه مواشيهم و كتب معاوية بن ابى سفيان (سعد ١/٢/٢٢ حميد الله رقم ٨٩ —

تروى عدة مصادر ان الرسول حمى النقيع (انظر البخارى ٣/١٣ ابن حنبل ٢/١٠٥/١٥٧ ابن سلام : الاموال الفقرة ٧٣٩ وفاء ٢/ ٢٢١ — ٣ عن ابن شبة و الزبير بن بكار البكرى ، معجم ما استعجم ١٣٢١ . و قد ذكر السمهودى تفاصيل عن هذا الحمى حيث قال : "و روى الزبير بن بكار عن مراوح المزنى قال نزل رسول الله عليه و سلم بالنقيع على مقمل وصليب و قال فى حمى النقيع : " نعم مرتع لافراس يحمى لهن و يجاهد بهن فى سبيل الله " و حماه و استعملنى عليه . و عن غير واحد من الثقات عن النبى (صلى الله عليه و سلم) انه صلى على مقمل و حماه ما حوله من قاع النقيع لخيول المسلمين ثم زادت بنو امية بعد و الامراء اضعاف ما حمى رسول الله بالنقيع .

و عن محمد بن هيصم المزنى عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه و سلم أشرف على مقمل طرف وسط النقيع فمسجده هناك . قال ابن هيصم عن أبيه فدعا رسول الله (صلى الله عليه و سلم) أبى و قال انى مستعملك فى هذا الوادى فما جاء من هاها و ها هنا يشير نحو مطلع الشمس و مغربها فامنعه فقال انى رجل ليس لى الا بنات و ليس معى احد يعاوننى قال فقال رسول الله (صلى الله عليه و سلم) " ان الله سيرزقك ولدا و يجعل لك وليا " و كان له بعد ذلك ولد ، فلم تزل الولاة يولون

عليه واليا منذ عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يستعمله والى المدينة حتى كان داود بن عيسى فنزله سنة ١٩٨ ، و انما تركه داود لان الناس جلوا عنه للخوف ذلك الزمان فلم يبق فيه أحد يستعمله عليه (وفاء ٢/٢٢٣) .

يروى ابن عمر ان النبى صلى الله عليه و سلم حمى النقيع للخيل ، و يروى ابن شبة عن ابن عمر ان النبى صلى الله عليه و سلم حمى النقيع للخيل و حمى الربذة للصدقة (وفاء ٢/٢٢٢) غير ان حمى الرسول للربذة لا تؤيده المصادر الاخرى .

و ما دام للحمى حكم خاص يتميز به عما حوله من الاراضى فلابد ان تكون له حدود معينة .

و قد حدد الرسول لحمى النقيع حدودا ، الا انها لم تظل ثابتة اذ يروى الزبير بن بكار'' قال يعقوب المزنى ثم تزايد الناس بعد فى الحمى فحموا ما بين تراخم الى يلبن و اتخذوا المرابد يحبسون فيها ما رعى الحمى من الابل حتى رأيت بعضها يأكل دبر بعض قال الزبير و قال لى : لقد رأيت لابيك اكثر من ثلاثة آلاف شاة بالنقيع و هو اذ ذاك أمير المدينة ما يرعى رعاؤه منها شيئا فى الحمى يكتمل العشب و يبلغ غايته فيرسل عامل الحمى صائحا يصيح فى الناس يؤذنهم باليوم الذى يأذن لهم يرون الحمى فيسرع فيه رعاء أبيك و الناس يدا واحدة ''كفرسى رهان '' (وفاء ٢/٢٢٣ — ٤).

يقول البكرى ان '' النقيع موضع تلقاء المدينة ، بينها و بين مكة ، على ثلاث مراحل من مكة بقرب قدس'' (بكرى ١٣٢٣ و الصحيح على ثلاث مراحل من المدينة) .

و يروى ايضا ''و روى ايضا ان النبى صلى الله عليه و سلم صلى الصبح فى المسجد بأعلى عسيب و هو جبل بأعلى قاع النقيع ، ثم أمر رجلا صيتا فصاح باعلى صوته ، فكان مدى صوته بريدا و هو أربعة فراسخ

فجعل ذلك حمى ، طوله بريد و عرضه الميل ، و فى بعضه اقل ، فى قاع — مدر طيب ينبت أحرار البقل و الطرائف ، و يستأجم حتى يغيب فيه الراكب ، و فيه مع ذلك من العضاه و العرفط و السدر و السيال و السلم و الطلح و السمر و العوسج و العرفج شجراء كثيرة و تحف هذا القاع الحرة ، حرة بنى سليم فى شرقيه ، و فيها قيعان دوافع فى بطن النقيع و فى غربيه الصحرة ، و اعلام مشهورة منها برام و الوتد وضاف ، و قد ذكر ان أول اعلامه عسيب فبرام ، جبل كأنه فسطاط ، و الوتد فى اسفل النقيع كأنه قرن منتصب و مقمل جبل أحمر افطح بين برام و الوتد شارع فى غربى النقيع ، و روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشرف على مقمل و صلى عليه فمسجده هناك . و بقاع النقيع غدر تصيف فاعلاها براجم و اذكرها يلبن ، و غدير سلامه أسفل من يلبن و بشرق النقيع فى الحرة قلتان يبقى ماؤهما و يصيف و هما أثيث و أثيث ''بكرى ١٣٢٣—٥ (عن السكونى'' وفاء ٢/٢٢٢ عن الهجرى) .

و يضيف البكرى . '' و ليس بازاء النقيع مما يلى الصحرة الا ماءة واحدة ، و هى حفيرة لجعفر بن طلحة بن عمرو بن عبيد الله بن معمر ، يقال لها حفيرة السدرة ، و سيل النقيع يفضى الى قرار املس ، و هى ارض بيضاء جهاد ، لا تنبت شيئا لها حس تحت الحافر ، هذا لفظ السكونى ، و العرب تسمى هذه الارض النفخاء و الجمع النفاخى ، و يليها أسفل منها حصير ، قاع يفيض عليه سيل النقيع فيه آبار ، و مزارع و مرعى للجمال من عضاه و رمث و أشجار و فيه يقول مصعب و كان يسكنه هو و ولده بعده . . . و يدفع أيضا على حصير الآتمة أتمة ابى الزبير و هى بساط طويلة واسعة تنبت عصما للمال و هناك بئر تنسب الى ابن الزبير ، و كان الأشعث المزنى ينزل الاتمة و يلزمها فاستمشى ماشية كثيرة و أفاد مالا جزلا حتى اتخذ اصولا و استغنى ، ثم يفضى من حصير الى غدير يقال له المز لا يفارقه الماء و هو فى شق بين جبلين يمر به

وادى العقيق فيحفره لضيق مسلكه و هذا الجبل المنفلق الذى يمر به السيل يقال له سقف ، ثم يقضى السيل منه الى غدير يقال له رواوة . . و لا يرى قعر هذا الغدير ابدا و لا يفارقه الماء ثم يفضى الى غدير الطفيتين ، و هو من أعذب ماء يشرب . الا أنه يبيل الدم ثم يفضى الى الاثبة ، و فيه غدير يقال له الاثبة سميت به الارض ، و فيه مال لعباد بن حمزة بن عبدالله بن الزبير ، كثير النخل و هو وقف ، ثم اسفل من ذلك رابغ و هو فلق من جبل سقف متضايق يجتمع فيه السيل ، سيل العقيق ، ثم يلتقى وادى العقيق و وادى ريم (١٣٢٢٣٧ — ٨)

احماء ابى بكر :

يروى ابن سعد عن هنى مولى عمر " ان أبابكر الصديق لم يحم شيئا من الارض الا النقيع ، و قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حماه فكان يحميه للخيل التى يغزى عليها ، وكانت ابل الصدقة اذا أخذت عجافا أرسل بها الى الربذة و ما والاها ترعى هناك و لا يحمى لها شيئا و يأمر أهل المياه لا يمنعون من ورد عليهم يشرب معهم و يرعى عليهم "سعد ٥/٦".

غير أن سيف بن عمر يروى عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد : " فلما غلب أهل الردة و دخلوا فى الباب الذى خرجوا منه و سامح الناس. جاءت بنو ثعلبة و هى كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها فأتوه فى المدينة فقالوا علام تمنع من نزول بلادنا ؟ فقال. كذبتم ليست لكم ببلاد و لكنها موهبى و نقدى و لم يعتبهم و حمى الابرق لخيول المسلمين و أرعى سائر بلاد الربذة الناس عدى بنى ثعلبة ثم حماها كلها لصدقات المسلمين لقتال كان وقع بين الناس و اصحاب الصدقات فمنع بذلك بعضهم من بعض (طبرى ١/١٨٧٩) و يقول ياقوت ان أبرق الربذة " من منازل بنى ذبيان فغلبهم عليه أبوبكر لما ارتدوا و جعله حمى لخيول المسلمين" (ياقوت ١/٧٧).

يتبين من هذه النصوص ان ابابكر أبقى حمى النقيع على ما أقره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم و حمى ابرق الربذة دون ان يحميها.

احماء عمر:

يروى ابن شبة و الطبرانى عن ابن عمران ''حمى النبى صلى الله عليه و سلم الربذة لابل الصدقة'' (وفاء ٢/٢٢٢ كذلك ٢٢٧) غير أن المصادر الاخرى لا تؤيد ذلك، و الراجح ان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب هو أول من حمى الربذة.

فيروى ابن سعد عن '' محمد بن عمر عن عكرمة بن عبدالله بن فروخ عن وجرة عن أبيه كان عمر بن الخطاب يحمى النقيع لخيل المسلمين و يحمى الربذة و الشرف لابل الصدقة'' (سعد ٣/١/٢٢٠)

و يروى عن هنى مولى عمر '' فلما كان عمر بن الخطاب و كثر الناس و بعث البعوث الى الشام و الى مصر و الى العراق حمى الربذة و استعملنى على حمى الربذة'' (سعد ٥/٦).

و يذكر زيد بن أسلم عن أبيه '' ان عمر بن الخطاب استعمل مولى له يقال له هنى على الحمى'' (الام ٣/٢٦٩) (ابو يوسف ص ١٠٥ سلام. ٤٧ وفاء)

و يقول البكرى '' الربذة هى التى جعلها عمر (رضى الله عنه) حمى لابل الصدقة و كان الذى أحماه بريدا فى بريد، ثم تزيدت الولاة فى الحمى أضعافا ثم ابيحت الاحماء فى أيام المهدى فلم يحمها أحد بعد ذلك'' (بكرى ٦٣٣)

يقول الاصمعى أن '' فى أول الشرف الربذة و هى الحمى الايمن، و الشريف الى جنبه يفصل بينهما التسرير فما كان مشرقا فهو الشريف و ما كان مغربا فهو الشرف'' (وفاء ٢/٢٢٧ ياقوت) و يقول السمهودى عند كلامه عن الربذة ان الربذة '' قرية بنجد من عمل المدينة على ثلاثة أيام منها قاله المجد.''

و فى كلام الاسدى ما يقضى انها على أربعة ايام . . . و تقدم قول الاصمعى انها من الشرف و انها الحمى الايمن ، و قال نصر هى من منازل الحاج بين السليلة و العقيق أى التى بذات عرق (وفاء ٢/٢٢٧).

و يقول ايضا " و روى ابن شبة باسناد صحيح عن ابن عمر (رضى الله عنه) ان عمر حمى الربذة لنعم الصدقة و لهذا نقل الهجرى عن جماعة أن اول من احمى الحمى بالربذة عمر بن الخطاب لقصاص الصدقة و ان سعة حماه الذى أحمى بريد فى بريد و ان سرة حمى الربذة كانت الحرة ثم زاد الولاة بعد فى الحمى و آخر من أحماه أبوبكر الزبيرى لنعمه و كان يرعى فيه أهل المدينة و كان جعفر بن سليمان فى عمله الاخير على المدينة أحماه لظهره بعدما ابيحت الاحماء فى ولاية المهدى لم يحمه أحد منذ عزل بكار الزبيرى (وفاء ٢/٢٢٧).

و يروى عن الاسدى " الربذة لقوم من ولد الزبير و كانت لسعد بن بكر من فزارة " (وفاء ٢/٢٢٧) غير انه لا يذكر متى أخذها آل الزبير و كيف أخذوها .

"و فى تاريخ عبيد الله الاهوازى انها خربت فى سنة ٣١٩ لاتصال الحروب بين اهلها و أهل ضرية ثم استأمن أهل ضرية الى القرامطة فاستنجدوهم عليهم فارتحل أهل الربذة عنها فخربت و كان أحسن منزل بطريق مكه " د وفاء ٢/٢٢٧ ياقوت ٢/٧٤٩) .

و يروى الاصمعى عن جعفر بن سليمان " اذا عقد البعير شحما بالربذة و سفر عليه سفرتان لا تنقصان شحمه لانها ارض ليس فيها حمض" (بكرى ٨٦٠).

و قد وصف اعلام حمى الربذة السمهودى (وفاء ٢/٢٢٧ و لعله اخذها من الهجرى) و البكرى (٦٣٣ — ٧) كما ذكر ياقوت الربذة و اماكنها فى مواضع مختلفة من كتابه .

لقد ذكرنا من قبل رواية الواقدى عن عكرمة عن ابى وجرة عن أبيه ان عمر حمى ايضا الشرف " ابن سعد ١٠٣/٢٢٠ ". و يقول السمهودى الشرف حماه عمر رضى الله عنه ، و ليس هو شرف الروحاء بل موضع بكبد نجد ، قال نصر : الشرف كبد نجد و قيل واد عظيم تكتنفه جبال حمى ضرية والظاهر انه مراد من غاير بينه و بين حمى ضرية و الربذة . قال الاصمعى : الشرف كبد نجد و كانت منازل بنى آكل المرار ، و فيها اليوم حمى ضرية ، و فى أول الشرف الربذة و هى الحمى الأيمن و الشريف الى جنبه يفصل بينهما التسرير فما كان مشرقا فهو الشريف و ما كان مغربا فهو الشرف " و يحتمل ان المراد بقولهم حمى الشرف و الربذة حمى ضرية و الربذة لما سيأتى من حمى ضرية انه كان يقال لعامله عامل الشرف ، و لم يفرد الهجرى فى احماء نجد الشرف و لم يبين له محلا و انما ذكر الربذة و ضرية مع ما سيأتى فيهما و قال الاصمعى : كان يقال من تصيف الشرف و تربع الحزن و تشتى الصمان فقد اصاب المرعى (وفاء — ٢/٢٢٧ ياقوت ٣/٥/٢) .

يتبين من هذه النصوص ان حمى الشرف هو حمى ضرية نفسه ، و يبدو انه كان يطلق عليه فى اوائل العهود الشرف ، ثم صار يطلق عليه حمى ضرية .

يقول السمهودى : " و نقل المجد ان أشهر الاحماء و أسيرها ذكرا حمى ضرية و كان حمى كليب بن وائل فيما يزعم بعض أهل طى " قال و ذلك مشهور عندنا بالباديه يرويه كابر عن كابر و فى ناحية منه قبر كليب معروف الى الآن . قلت و أخبرنى بذلك رئيس أهل نجد . . . أجود بن جبر و قال : ان قبر كليب هناك معروف عند العرب يقصدونه ، قال ودلنى عليه بعضهم لا قصده فقلت : هو واحد من الجاهلية .

و نقل الهجرى أن أول من أحمى الحمى بضرية عمر بن الخطاب احماء لابل الصدقة و ظهر ان الغزاة و أن سروح الغنم العادية من

ضرية ترعى على وجوهها ثم تؤوب بضرية و ذلك ستة أميال من كل ناحية ، و ضرية فى وسط الحمى ، فكان على ذلك حياة عمر و صدرا من ولاية عثمان ثم كثر النعم حتى بلغ أربعين الف بعير فضاق عنه الحمى فأمر عثمان أن يزاد ما يسع ابل الصدقة و ظهران الغزاة زيادة لم يحددوها الا أن عثمان (رضى الله عنه) اشترى ماء من مياه بنى ضبينة كان ادنى مياه غنى الى ضرية يقال له البكرة عند هضبات يقال لها البكرات على نحو عشرة أميال من ضرية يذكرون أن البكرة دخلت فى حمى عثمان ثم لم تزل الولاة تزيد فيه و اتخذوه مأكله ، و من أشهرهم فيه انبساطا ابراهيم بن هشام المخزومى زاد فيه و ضيق على أهله و اتخذ فيه من كل لون من الوان الابل الف بعير (وفاء ٢/٢٢٩) .

" و كانت ضرية من مياه الضباب فى الجاهلية لذى الجوشن الضبابى والد شمر قاتل الحسين بن على . " (وفاء ٢/٢٣٢) .

و قد ظلت هذه الاهمية الخاصة لضرية بعد الاسلام فيقول السمهودى و كان شأن الحمى عند ولاة المدينة عظيما كانوا يستعملون عاملا وحده و كانت اصابته فيه عظيمة و كان لحواطه سلطان عظيم ، و حواط كل ناحية سادة القوام و أشرافهم ، و كان يقال لعامل الحمى عامل الشرف (وفاء ٢/٣٢٣) يظهر أن حمى ضرية قديم يرجع الى زمن الجاهلية ، فقد كان فى الشرف و هو منازل بنى آكل المرار من كندة (ياقوت ٣/٢٨٥ وفاء/٢٢٧ عن الاصمعى) و الراجح أنه كان مقر حكمهم الذى سيطروا منه على قبائل نجد و بلادها ، و كان فيه أيضا قبر كليب (وفاء ٢/٢٢ عن المجد) و لعل كليبا اتخذه مقرا له محاولا بذلك أن يرث ال كندة تقاليدهم و ظل يحكم بقوة حتى قتل ، فأدى مقتله الى سلسلة الحروب المدعوة بالبسوس و التى كان من أهم آثارها عدم تكوين دولة كليبية تحل محل كندة ، و الى اضطراب الامن فى الجزيرة ، و اقصاء تغلب عن هضبة نجد و ابتعادها عن موقع ضرية الذى اخذت تحته قبائل

كلاب و غنى .

ان هذه الاهمية الكبيرة لضرية لا ترجع الى أهمية موقعها الجغرافى بقدر ما ترجع الى أهمية مواردها ، حيث ان فى هذه المنطقة أو قربها تقع أكثر مناجم الذهب فى الجزيرة و لعل هذا من أهم عوامل نشوء و قوة كل من كندة و حكومة كليب التغلبى أى ان كلا منهما اختار ضرية لكثرة مناجم الذهب فيها و ليكون بمقدوره السيطرة عليها و بعد أن تم له ذلك أخذ يستخدم موارد هذه المناجم لتقوية مركزه و بسط سيطرته .

ثم ان ضرية كانت منطقة تكثر فيها الآبار و الينابيع و المياه التى تصلح لاتخاذ الزروع . و قد ذكر السمهودى نقلا عن الهجرى عددا من الينابيع و المزارع التى حدثت فى ضرية فى العهد الاسلامى و أخبارها و لعل هذه المزارع كانت ترجع الى العصر الجاهلى و ان المسلمين وسعوها أو أعادوا حفرها أو ان ازدهار الزراعة فى العصر الجاهلى كان دافعا للمسلمين للالتفات اليها و احيائها .

فما ذكره السمهودى ان " عثمان رضى الله عنه اشترى ماء من مياه بنى ضبينة كان أدنى مياه غنى الى ضرية يقال له البكرة عند هضبات لها البكرات على نحو عشرة أميال من ضرية يذكرون ان البكرة دخلت فى حمى عثمان . . و كان ناس من الضباب قدموا على ولد عثمان فاستسقوهم بالبكرة فاسقوهم فلم تزل بايديهم " .

و حفر عثمان عينا فى ناحية أرض غنى خارجة عن الحمى بناحية الماء الذى يقال له نفى على نحو خمسة عشر ميلا من اضاخ ، و فقرت لها بها فقر كبيرة ، و ابتنى عماله عندها قصرا اثره بين ، قرب واردات ، مقبل و لم تجر فتركها العمال فلم يحرك ذلك السيح الى اليوم ، و دفنت غنى فى فتنة ابن الزبير عنصر العين و تلك الفقر فنسيت عيونه .

و أدنى مياه بنى تميم الى اضاخ ماء يقال له اضبخ لبنى الهجيم و قد دفن منذ دهر فقال ناس من بنى عبدالله بن عامر لاصهار لهم من بنى الهجيم : نحن نستسقى لكم آل عثمان فنسقى ، فرغبوا فى ذلك فاجابهم آل عثمان فاستظعن الهجيميون قومهم اليه فلقيهم رعاء غنى فسألوهم فقالوا : ان بنى عثمان و لونا امره . و قد أدت هذه الخصومة الى اهمال هذا الماء فصار مواتا فى سنة مائة و خمس و خمسين .

و احتفر عبدالله بن مطيع حفيرة هى فى أيدى الضباب على بريد من ضرية على طريق اضاخ للمدينة فى ناحية شعبى .

و كان الكنديون يسقون و ماؤهم يسمى الثريا .

و قنيع ماء للعباس الكندى على ظهر محجة أهل البصرة فى دارة من دارات الحمى يقال لها دارة عسعس فلما اجلى الكنديون عن قنيع تنازعت بنو ابى بكر بن كلاب و بنو جعفر فقالت ابوبكر : نحن أحق بماء حلفائنا و قال الجعفريون : هو عند بيوتنا فنحن أحق به . . '' ثم اخذه الجعفريون ''.

و احتفر بعض بنى حسن بن على بالحمى و اتخذ الى جنب حفرته عينا ساحت ثم خرجت فى غربى طخفة بشاطىء الريان على ثلاثة عشر ميلا من ضرية و هى بيد ناس من بنى جعفر ثم من بنى ملاعب الاسنة من جهة بنى اختهم الحسنيين .

و كان لبنى الادرم و هم من بنى تيم بن لوىء ماء قديم على طريق أهل ضرية الى المدينه على ١٨ ميلا من ضرية يسمى الجفره و معهم نفر من بنى عامر بن لوىء ، فاختفر سعيد بن سليمان المساحقى العامرى (القارى) عينا و اساحها و غرس عليها نخلا كثيرا على ميل او نحوه من حفر بنى الادرم بدارة الاسود جبل عظيم أسود ، و هى عامرة كثيرة النخل .

و لما ولى ابراهيم بن هشام المدينة احتفر بالحمى حفيرة بالهضب اليمنى على ستة اميال من ضرية على طريق البكرة الى ضرية سماها النامية و اخرى بناحية شعبى بين ضرية و حفر بنى الادرم على سبعة

امیال من ضریة بواد یقال له فاضحة لانه انفضاح أی انفراج و اتساع من جبال .

و لما هلك ابن هشام احتفر جعفر بن مصعب بن الزبیر حفیرة الی جنب حفیرة ابن هشام بفاضحة و نزلها بولده حتی مات ، فاقام ابنه محمد بمنزلة أبیه حتی خرج محمد بن ابراهیم بن عبدالله بن حسن فخرج مع محمد فلما قتل هرب الی البصرة ، ثم رجع الی فاضحة و تزوج من بنی جعفر ، ثم من بنی الطفیل فاولد عبدالله فزوجه ابنة القاسم بن جندب الفزاری و کان علما من اعلام العرب ینزل باللواء و کان القاسم لایسیر أبدا و لم یکن حج قط و لایکاد یقدم ضریة و اولاده عبدالله من ابنته فی بقیة من اموالهم بفاضحة .

و احتفر عبدالله حفیرة الی جنب حفیرة جده و دفن حفیرة ابن هشام و أخفی مکانها ، و احتفر جوشن مولی ابن هشام حفیرة علی میلین أو ثلاثة من حفر بنی الادرم و حفرة المسا حتی سماها الجوشنیة ، ثم اشتراها ناس من ولد رافع بن خدیج من الانصار و احدثوا بقربها حفیرة بقطیعة السلطان فنازعهم محمد بن جعفر بن مصعب بحق بنی الادرم و کان من اشد الرجال فقاتلهم وحده . . و استعدی علیهما الحسن بن زید بالمدینة . . و اختصموا فی الجوشنیة و الحفیرة ، حتی قضی لبنی الادرم و المساحقی فکلمهم الناس فسبقوهم بها ، و کان الانصاریون أهل عمود و ماشیه ، فلما کانت الفتنة اکلتهم اللصوص من قیس من کلاب و فزارة فلحقوا بطیء و ناسبوهم فامنوا مددر ، ثم اغارت علیهم لصوص فتفرقوا و ترکوا البادیة ، و کانت بنو الادرك و بنو بحیر القریشیون قد کثروا بالجفر ، ثم وقع بینهم شر و کان جیرانهم من قیس یکرمونهم ، فلما تفاسدوا جعل بعضهم یهیج اللصوص علی بعض فنهبهم بنو کلاب و فزارة و قتلوا بعض رجالهم فلحقوا بالمدینة و تفرقوا (وفاء ٢/٢٢٩—٢٣٢) .

''و أما عين ضرية و سيحها فيقال انه كان لعثمان بن عنبة بن أبي سفيان و هو الذى حفرها و اغترس النخل و ضفر بها ضفيرة بالصخر لينحبس الماء و هو سد يعترض الوادى فيقطع ماءه و ينحبس زمانا ليكون أغرز للعين، فلما قام أبو العباس كان ذلك فيما قبضوا، ففى آخر ولاية أبى العباس و كانت تحته أم سلمة المخزومية من بنى جعفر بن كلاب و قد أخالها معروف بن عبدالله عليه فاكرمه فسأله أن يقطعه عين ضرية فاقطعه و كان بدويا ذا زرع فلما ارطب نخلها نزلها باهله و كانت نعمه ترد عليه و سأله ناس من ضرية أن يعريهم من نخله فاعراهم و صار يحنى للضيفان من الرطب و يحلب لهم من ابله فمكث نحو شهرين فاتاه ضيفان بعد ما ولى الرطب فارسل فلم يؤت الا بقليل و قال له الرسول: ذهب الرطب الا ما ترى فقال: يسوءنى أن أعود على ضيفانى من نخلكم، و كان قيمه على العين زرع قثاءا و بطيخا فأتاه بشىء منه فقال: قبح الله ما جئت به و احذر أن يراه عيالى، و كره النخل و أراد بيعه فاشتراه منه عبدالله الهاشمى عامل اليمامة بالفى دينار ثم ولاه ابا جعفر بن سليمان اذ سأله اياه فاحدث بسوق ضرية حوانيت جعلها سماطين داخلين فى سماطى ضرية الاولى فيهما نيف و ثمانون حانوتا فربما جمعت غلة الحوانيت و النخل و الزروع ثمانية آلاف درهم فى السنة (وفاء ٢/٢٣٢ — ٣).

''و لما ولى أبو خليد العبسى خال الوليد عمل ضرية و نزلها و حفر فى جوف الشاة فى حق غنى فقيرة، فلما ولى بنو العباس هدمت غنى تلك الحفرة و سووها بالارض (وفاء ٢/٢٣٣) و لبنى عبس ماء فى شعب يقال له الاسودة و لهم بالحمى ما يقال له ضحح فى ابط رميلة الحسى حسى بنى حصبة و لهم الحاء بها نخل كثيرة و لهم مياه آخرى'' (وفاء ٢/٢٣٣).

و لضرية أهمية كبرلى كمرعى فيقول الاصمعى ''كان يقال من تصيف الشرف و تربع الخزن و شتى الصمان فقد أصاب المرعى'' (ياقوت

٣/٢٨٥ وفاء ٢/٢٢٧).

" و حكى ابن جنى فى "النوادر الممتعة" عن الفضل بن اسحق قال هو أو قال بعض المشيخة ، لقيت اعرابيا فقلت ممن الرجل ؟ فقال من بنى أسد فقلت : فمن أبن أقبلت ؟ قال من هذه البادية . قلت : فأين مسكنك منها ؟ قال مساقط الحمى حمى ضرية بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلا و لا عنها حولا ، قد نصحتها الغدوات و حفتها الفلوات فلا يملح ترابها و لا يمعر جنابها ليس فيها أذى و لا قذى و لا وعك و لا موم و لا حمى ، فنحن فيها بأرفه عيش و أرغد معيشة." (وفاء ٢/٢٣٤) .

و تؤكد المصادر ان عمر حمى الحمى من أجل ابل الصدقة فتروى عدة مصادر ان عمر كان يحمل على ٣٠ الف بعير فى سبيل الله كل سنة (ابن سعد ٣ — ١/٢٣٠ عن الواقدى).

يذكر مالك انها ٤٠ الفا (اموال ٧٤٢ وفاء ٢/٢٢٥) و يضيف السمهودى عن مالك " بلغنا ان الخيل التى أعدها عمر (رضى الله عنه) ليحمل عليها فى الجهاد و من لا مركوب له عدتها أربعون الفا ".

و قد حمى النقيع لخيل المسلمين ، و الربذة و الشرف لابل الصدقة (ابن سعد ٣ — ١/٢٢١ عن الواقدى).

و يروى زيد بن أسلم عن أبيه رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل مولى له على الحمى فقال له ويحك يا هنى اضم جناحك عن الناس و اتق دعوة المظلوم فان دعوة مجابة ، ادخل لى رب الصريمة و رب الغنيمة ، و دعنى من نعم عثمان بن عفان و ابن عوف ، فان ابن عفان و ابن عوف ان هلكت ما شيتهما رجعا الى المدينة الى نخل و زرع و ان هذا المسكين ان هلكت ما شيته جاءنى يصيح : يا امير المؤمنين يا امير المؤمنين — و الماء و الكلأ اهون على من ان أغرم له ذهبا أو ورقاءه و الله ان هذه لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية و اسلموا عليها فى الاسلام ، و لو لا هذا النعم الذى احمل عليه فى سبيل الله ما حميت

على الفاس من بلادهم شيئا (ابو يوسف الخراج ١٠٥ ، وفاء ٢/٢٢٥).
و يذكر القاسم بن سلام بعد ايراده هذا النص '' قال اسلم فسمعت رجلا ، من بنى ثعلبة يقول يا أمير المومنين حميت بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية و أسلمنا عليها فى الاسلام ، يرددها عليه — مرارا و عمر رفع رأسه اليه فقال : البلاد بلاد الله، و تحمى لنعم مال الله يحمل عليها فى سبيل الله.'' (سلام فقره ٧٤٠/٧٤٠).

يتبين من هذا النص : (١) ان الاحماء للمصلحة العامة . (٢) يقررها الخليفة . (٣) يشمل اراضى كان بعض الناس قد وضعوا أيديهم عليها . (٤) انها لاغراض الرعى. (٥) يباح للناس استعمالها فهى ليست ملكية خاصة . (٦) يجوز منع بعض الناس أو كلهم عنها . (٧) ليست لها صبغة قدسية أو دينية أو لاغراض دينية .

يقول الشافعى : ''و قول عمر : لو لا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت على المسلمين من بلادهم شبرا . انى لم احمها لنفسى و انى حميتها لمال الله الذى أحمل عليه فى سبيل الله ، وكانت من أكثر ما عندى مما يحتاج الى الحمى فنسب الحمى اليها لكثرتها و قد أدخل الحمى خيل الغزاة فى سبيل الله فلم يكن ليحمل عليه أولى بما عنده من الحمى مما تركه أهله و يحملون عليها فى سبيل الله لأن كلا لتعزيز الاسلام ، و أدخل فيها الابل الضوال لأنها قليل لعوام من ابل الصدقة و هم عوام من المسلمين يحتاجون الى ما جعل مع ادخاله من ضعف عن النجعة ممن قل ماله و فى تماسك أموالهم عليهم غنى عن أن يدخلوا على أهل الفيء من المسلمين و كل هذا وجه عام لنفع للمسلمين ، (الام ج ٣ ص ٢٧١).

لقد اثارت مسألة الحمى مشكلات كثيرة و كانت من القضايا التى أخذها بعض المسلمين على الخليفة الثالث عثمان فيرى أبو مخنف باسناده : ''انكر على عثمان ما أنكر عليه ان حمى الحمى'' و هذا كلام

غير دقيق ، اذ ان عثمان لم يبدأ باحماء الحمى ، بل سبقه فى ذلك الرسول و أبوبكر و عمر و لا يكون هذا التعبير صحيحا الا اذا افترضنا أن ابا مخنف يشير الى حمى معين .

و قد نقل الواقدى عن معمر عن الزهرى ، ان عثمان حمى النقيع لخيل المسلمين و كان يحمل فى كل سنة على خمسمائة فرس و الف بعير " و كانت الابل ترعى بناحية الربذة فى حمى لها (انساب ج ٥/٣٨) غير أن هذه الرواية تناقض الروايات المتعددة الاخرى التى تقول : ان الرسول هو الذى حمى النيع . "

تشير المصادر الى حمى فيد (انظر ياقوت ٢/٣٤٣ وفاء ٢/٢٢١) و يذكر السمهودى : " و فيد منزل فى طريق الحاج العراقى مسيرة يوم من المدينة ".

يقول الاسدى : و فيد " لطيء لبنى نبهان و به أخلاط من اسد و همدان و غيرهم و به ثلاث عيون ، عين النخل احتفرها عثمان بن عفان ، و الاخرى تعرف بالحارة فى وسط الحصن و السوق احتفرها المنصور ، و الثالثة تعرف بالباردة على الطريق خارج المنزل حفرها المهدى و بفيد آبار كثيرة قصيرة الرشا " .

و يقول الهجرى : و اما حمى فيد وصفته فلم اجد احدا عنده علم ممن كان اول من احماه و لا كم كانت سعته اول ما احمى ، الا ان فيدا كان موضعه الذى هو به اليوم فلاة من الارض بين بنى اسد و طيء . و كانت الى جبل طيء أقرب فذكر أهل العلم ممن لقيت من اهله انه التقطت به ركبتان كانتا جاهليتين التقطهما اناس من بنى ابى سلام و معهم نفر من طيء و هم يرعون هناك فى ولاية بنى مروان ، و ان اول من حفر به حفرا فى الاسلام ابو الديلم مولى فزارة فاحتفر العين التى هى اليوم قائمة و اسحها و غرس عليها ، و كانت فى يده حتى قام بنو العباس فقبضوها فهى اليوم فى ايديهم (وفاء ٢/٢٣٥ — ٦) .

و يعقب السمهودى على كلام الهجرى بقوله ''و كأنه لم يقف على ما ذكره الاسدى من عين عثمان رضى الله عنه و لعله أول من احماه (وفاء ٢/٢٣٦).

فاذا صح هذا الاستنتاج يكون مبحث الانتقاد على عثمان هو اتخاذه فيدا حمى ، و هذا عمل لا يثير كافة المسلمين بل لابد انه أثار بعضهم.

و قد نقل السمهودى ملخص البحث المفصل الذى ذكره الهجرى عن حمى فيد .

تذكر روايات أخرى ان عثمان زاد فى الحمى فيروى ابو مخنف ان الثائرين على عثمان كان مما عابوه عليه فقالوا : زدت فى الحمى لا بل الصدقة على ما حمى عمر فقال انها زادت فى ولايتى (انساب ٥/٦٢) فقالوا أرأيت ما حميت من الحمى الله اذن لك ؟ ام على الله تفترى ؟. فقال : امضه. نزلت فى كذا و كذا قال و أما الحمى فان عمر حمى الحمى قبلى لابل الصدقة فلما وليت زادت ابل الصدقة فزدت فى الحمى لما زادت لابل الصدقة (طبرى ١/٢٩٦٣).

و يروى الطبرى ايضا ان عائشة خطبت من مكة بعد مقتل عثمان و كان مما قالته : '' اجتمعوا ان عاب الغوغاء على هذا المقتول بالامس الارب و استعمال من حدثت سنه و قد استعمل اسنانهم قبله ، و مواضع من مواضع الحمى حماها لهم و هى امور قد سبق بها لا يصلح غيرها '' (طبرى ١/٣٠٩٧).

و روى الطبرى ان عثمان قال '' و قالوا حميت حمى ، و انى و الله ما حميت ، '' حمى قبلى ، والله ما حموا شيئا لاحد ، ما حموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه واحدا و اقتصروا لصدقات للمسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها و بين أحد تنازع. ثم منعوا و لا نحوا منها أحدا الا من ساق درهما و ما لى من بعير غير راحلتين تاغية و لا راغية و انى قد وليت و انى أكثر العرب بعيرا و شاءا

فمالى اليوم شاة و لا بغير غير بعيرين لحجى" (طبرى ١/١٩٥٢).

و قد أشرت المصادر الى اضافات عثمان للحمى و توسيعه اياه فيروى الهجرى ان حمى ضرية كان ستة أميال من كل ناحية " حياة عمر و صدرا من ولاية عثمان ثم كثر النعم حتى بلغ أربعين الف بعير فضاق عنه الحمى فأمر عثمان ان يزاد ما يسع ابل الصدقة و ظهر ان الغزاة فزاد زيادة لم يحددوها الا ان عثمان اشترى ماء من مياه بنى ضبينة كان أدنى مياه غنى الى ضرية يقال لها البكرة عند هضبات يقال لها البكرات على نحو عشرة أميال من ضرية يذكرون ان البكرة دخلت فى حمى عثمان (وفاء ٢/٢٢٧) غير ان هذا العمل لا يكفى لتوضيح سبب الاحتجاج الشديد على عثمان بسبب الحمى .

الامويون و الحمى :

لم يذكر من العصر الاموى سوى حمى واحد ، فيروى ابن شبة عن ابى عبيدة " كان زياد قد أرعى مسكينا الدارمى حمى له بناحية العذيب فى عام قحط حتى اخصب الناس (اغانى ١٨/٦٨).

و نحن نرجح ان الامويين لم يحاولوا احماء جديد تحاشيا من أن تحدث لهم المشاكل التى حدثت لعثمان " و اكتفوا بتوسيع الحمى التى كانت مقررة قبل مجيئهم ."

و لا شك ان الاحماء كانت تحدث مشاكل فان الروايات تظهر أن الغرض الرئيسى منها هو مراعى للابل و الخيل ، و ربما الاغنام ، غير أن خصوبة ارضها كان يؤدى الى تجاوزات عليها مما كان يتطلب حراسة قوية و اشتباكات غير قليلة سجلت الكتب بعضها . يضاف الى ذلك ان تطور الحياة الاقتصادية و محصولات احياء الاراضى الزراعية امتد الى هذه المناطق . و ان هذا الاحياء كان يؤدى الى خلق الملكيات الفردية فى داخل الحمى و الى تقليص مساحة المراعى فيه مما يتطلب اضافة أراض جديدة اليه لتعوض عما تفقده المراعى من مساحات و هكذا كانت الاحماء

مناطق معرضة لكثير من المشاكل الاقتصادية و المالية فضلا عن مشاكل الامن الذى يحدث نظرا لموقعها النائى نسبيا فى الصحراء ، و بعدها عن مقرات الجيوش ، وسعة مساحاتها و انكشاف حدودها و كثرة البدو القريبين منها ، الامر الذى يتطلب لها ادارة قوية و حراسة يقظة .

و غير ان ادارة الحمى لم تقتصر على حمايته من التجاوزات ، بل كان عليها ان تنظر أيضا فى حل كثير من المشاكل التى كانت تحدث بين الرعاة و الزراع أنفسهم أو مع بعضهم ، هذا فضلا عن الاشراف على ابل الصدقة و مواشيها . و هو أمر غير سهل .

يروى ابن سعد ان عمر بن عبدالعزيز ''كتب فيما حمى من الارض الا يمنع احد مواقع القطر فابح الاحماء ثم اباحها '' (سعد ٥/ ٢٨١).

و يروى ابن عبدالحكم انه كتب '' و نرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة . و قد كانت تحمى فتجعل فيها نعم الصدقات فيكون فى ذلك قوة و نفع لأهل فراض الصدقات ، و ادخل فيها و طعن فيها طاعن من الناس فنرى فى ترك حماها و التنزه عنها خيرا اذا كان ذلك من امر و انما الامام فيها كرجل من المسلمين ، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء '' (سيرة عمر بن عبدالعزيز : ص ٨١) .

و قد كانت بجانب الاحماء العامة ، أحماء شخصية ، و قد اشار جرير الى ذلك بقوله :

و نرعى حمى الاقوام غير محرم علينا و لا يرعى حماذا الذى نحمى

و قد روى ابن عبد البر ان عمر بلغه عن يعلى بن امية وكان عاملا على اليمن انه حمى لنفسه فأمره ان يمشى على رجليه الى المدينة فمشى اياما الى صعدة فبلغه موت عمر فركب'' (وفاء ٢/ ٢٢٥).